

سورة الشعراء

طسّم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحدة الأولى: 1 - 9 الموضوع: إثبات النبوة وثبات موقف الكفار منها مقدمة سورة الشعراء

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعا . . العقيدة . . ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله: (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) . . والخوف من الآخرة: (ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . . والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله [ص]: (وإنه لتنزيل رب العالمين ; نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) . . ثم التخويف من عاقبة التكذيب , إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين ; وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين: (فقد كذبوا فسيأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون!) . . (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

ذلك إلي تسلية الرسول [ص] وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ; وثببتهم على العقيدة مهما أودوا في سبيلها من الظالمين ; كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

وجسم السورة هو القصة الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها . والسورة هي هذا القصة مع مقدمة وتعقيب . والقصة والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة , تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة , تلتقي عند هدف واحد . . ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض .

ويغلب على القصة كما يغلب على السورة كلها جو الإنذار والتكذيب , والعذاب الذي يتبع التكذيب . ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله [ص] واستهزاءهم بالندى , وإعراضهم عن آيات الله , واستعجالهم بالعذاب الذي يوعدهم به ; مع التقول على الوحي والقرآن ; والادعاء بأنه سحر أو شعر تنزل به الشياطين !

والسورة كلها شوط واحد - مقدمتها وقصصها وتعقيبها - في هذا المضمار . لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها . ونبدأ بالمقدمة قبل القصة المختار:

(طسّم . تلك آيات الكتاب المبين) . .

طا . سين . ميم . . الأحرف المقطعة للتنبيه إلى أن آيات الكتاب المبين - ومنها هذه السورة - مؤلفة من مثل هذه الأحرف ; وهي في تناول المكذبين بالوحي ; وهم لا

يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب المبين . والحديث عن هذا الكتاب متداول في السورة . في مقدمتها ونهايتها . كما هو الشأن في السور المبدوءة بالأحرف المقطعة في القرآن .

وبعد هذا التنبيه يبدأ في مخاطبة رسول الله [ص] الذي يهمله أمر المشركين ويؤذيه تكذيبهم له وللقرآن الكريم ; فيسليه ويهون عليه الأمر ; ويستكثر ما يعانيه من أجلهم ; وقد كان الله قادرا على أن يلوي أعناقهم كرها إلى الإيمان , بآية قاهرة تقسرهم عليه قسرا:

(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ! إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين).

وفي التعبير ما يشبه العتب على شدة ضيقه [ص] وهمه بعدم إيمانهم:(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين). . وبخع النفس قتلها . وهذا يصور مدى ما كان رسول الله [ص] يعاني من تكذيبهم , وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التكذيب , فتذوب نفسه عليهم - وهم أهله وعشيرته وقومه - ويضيق صدره . فربه يرأف به , وينهه عن هذا الهم القاتل , ويهون عليه الأمر , ويقول له: إن إيمانهم ليس مما كلفت ; ولو شئنا أن نكرههم عليه لأكرهناهم , ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالا , ولا إنصرافا عن الإيمان . ويصور خضوعهم لهذه الآية صورة حسية: (فظلت أعناقهم لها خاضعين)ملوية محنية حتى لكان هذه هيئة لهم لا تفارقهم , فهم عليها مقيمون !

ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة . معجزا في كل ناحية:

معجزا في بنائه التعبيري وتنسيقه الفني , باستقامته على خصائص واحدة , في مستوى واحد , لا يختلف ولا يتفاوت , ولا تتخلف خصائصه ; كما هي الحال في أعمال البشر . إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد , المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد , ومستوى واحد , ثابت لا يتخلف , يدل على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال .

معجزا في بنائه الفكري , وتناسق أجزائه وتكاملها , فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتناسق وتتكامل ; وتحيط بالحياة البشرية , وتستوعبها , وتلبيها وتدفعها , دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ; ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تليتها . وكلها مشدودة إلى محور واحد , وإلى عروة واحدة , في اتساق لا يمكن أن تفتن

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ
أَنْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6)

إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة , غير مقيدة بقيود الزمان والمكان . هي التي أحاطت به هذه الإحاطة , ونظمتها هذا التنظيم .

معجزا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس , ولمس مفاتيحها , وفتح مغاليقها , واستجاشة مواضع التأثير والاستجابة فيها ; وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر

عجيبين ; وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات , دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة .

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة - ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم - ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها , وللأجيال كلها . وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب . لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ; ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى , لا واقعا يشهد . . فأما القرآن فما هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم , يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم - لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم - ويلبي حاجاتهم كاملة ; ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل , وأفق أعلى , ومصير أمثل . وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن ; ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ; ويبقى رصيده لا ينفد , بل يتجدد . ولكن لم يكونوا يفتنون إلى هذه الحكمة الكبرى . فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين :

(وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) . .

ويذكر اسم الرحمن هنا للإشارة إلى عظيم رحمته بتنزيل هذا الذكر , فيبدو إعراضهم عنه مستقيحا كريبها ; وهم يعرضون عن الرحمة التي تنزل عليهم , ويرفضونها , ويحرمون أنفسهم منها , وهم أحوج ما يكونون إليها !

ويعقب على هذا الإعراض عن ذكر الله ورحمته بالتهديد بعقابه وعذابه:

فقد كذبوا فسيأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون . .

وهو تهديد مضمحل مهول . وفي التعبير سخرية تناسب استهزاءهم بالوعيد . (فسيأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون) . ستأتيهم أخبار العذاب الذي يستهزئون به ! وهم لن يتلقوا أخبارا . إنما سيدوقون العذاب ذاته , ويصبحون هم أخبارا فيه , يتناقل الناس ما حل بهم منه . ولكنهم يستهزئون فيستهزأ بهم مع التهديد المرهوب !

وإنهم يطلبون آية خارقة ; ويغفلون عن آيات الله الباهرة فيما حولهم ; وفيها الكفاية للقلب المفتوح والحس البصير ; وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب .

أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟ إن في ذلك لآية , وما كان أكثرهم مؤمنين . .

ومعجزة إخراج النبات الحي من الأرض , وجعله زوجا ذكرا وأنثى , إما منفصلين كما في بعض فصائل النبات , وإما مجتمعين كما هو الغالب في عالم النبات , حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث في عود واحد . . هذه المعجزة تتكرر في الأرض حولهم في كل لحظة: (أو لم يروا!) والأمر لا يحتاج إلى أكثر من الرؤية ?

والمنهج القرآني في التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون ; وبنه الحس الخامد , والذهن البليد , والقلب المغلق , إلى بدائع صنع الله المبتوثة حول الإنسان في كل مكان ; كي يرتاد هذا الكون الحي بقلب حي ; يشاهد الله في بدائع صنعه , ويشعر به كلما وقعت عينه على بدائعه ; ويتصل به في كل مخلوقاته ;

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

وبراقبه وهو شاعر بوجوده في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ويشعر أنه هو واحد من عباده , متصل بمخلوقاته , مرتبط بالنواميس التي تحكمهم جميعا . وله دوره الخاص في هذا الكون , وبخاصة هذه الأرض التي استخلف فيها:

(أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) .

كريم بما فيه من حياة , صادرة من الله الكريم . . واللفظ يوحي إلى النفس باستقبال صنع الله بما يليق من التكريم والحفاوة والاحتفال ; لا بالاستهانة والغفلة والإغفال . . (إن في ذلك لآية). وهم يطلبون الآيات . ولكن أكثرهم لا يؤمن بهذه الآية: (وما كان أكثرهم مؤمنين)!

وتنتهي مقدمة السورة بالتعقيب الذي يتكرر في السورة بعد استعراض كل آية:

(وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . .

(العزيز) القوي القادر على إبداع الآيات , وأخذ المكذبين بالعذاب (الرحيم) الذي يكشف عن آياته , فيؤمن بها من يهتدي قلبه ; ويمهل المكذبين ; فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير . وفي آيات الكون غنى ووفرة , ولكن رحمته تقتضي أن يبعث بالرسول للتبصير والتنوير . والتبشير والتحذير .

الوحدة الثانية: 60 - 68 الموضوع: مشاهد ولقطات من قصة موسى عليه السلام مقدمة الوحدة

هذه الحلقة من قصة موسى - عليه السلام - تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة , ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة ; وإلى طمأنة الرسول [ص] وتعزيبته عما يلقاه من أعراس المشركين وتكذيبهم ; وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتتكيل - وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة - وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم .

وقد وردت حلقات من قصة موسى - عليه السلام - حتى الآن في سورة البقرة , وسورة المائدة , وسورة الأعراف , وسورة يونس , وسورة الإسراء , وسورة الكهف , وسورة طه . عدا إشارات إليها في سور أخرى .

وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة , أو السياق الذي تعرض فيه , على نحو ما هي في هذه السورة ; وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق .

والحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب , وعقابا على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين . ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين . وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه

السورة عن المشركين: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). . وقوله: (فقد كذبوا فسياتهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون). .

وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية , بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد , ثم يرفع عن المشهد الذي يليه . وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة .

وهنا سبعة مشاهد: أولها مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى - عليه السلام - وربّه . وثانيها مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسائله وأيتي العصا واليد البيضاء . وثالثها مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى . ورابعها مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء ! وخامسها مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده . وسادسها مشهد ذو شقين: الشق الأول مشهد إichاء الله لموسى أن يسري بعباده ليلا , والثاني مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل . وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين .

وقد عرضت هذه المشاهد في سورة الأعراف , وفي سورة يونس , وفي سورة طه . ولكنها عرضت في كل موضع من الجانب الذي يناسب ذلك الموضع , وبالطريقة التي تتفق مع اتجاهه , وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك .

ففي الأعراف مثلا بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرا , ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعا , بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك , وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة . واستطرد بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات كثيرة . . واختصر هذا هنا فلم يشر إليه . بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله ; وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبى [ص] .

وفي يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصرا لم يعرض فيه آيتي العصا واليد , واختصر كذلك في مشهد المباراة . بينما توسع هنا في كليهما .

وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربّه . واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة

وَإِذْ تَأَذَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ آتَيْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (13)

فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلا . ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة .

وكذلك لا نجد تكرارا في عرض القصة أبدا على كثرة ما عرضت في سور القرآن . لأن هذا التنوع في اختيار الحلقات التي تعرض , ومشاهد كل حلقة , والجانب الذي يختار من كل مشهد , وطريقة عرضه . . كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع . متناسقة مع هذا الموضع .

الدرس الأول: 10 - 17 تكليف موسى بالذهاب إلى فرعون

(وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ قال: رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني , فأرسل إلى هارون . ولهم علي , ذنب فأخاف أن يقتلون . قال: كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا: إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل) . .

الخطاب لرسول الله [ص] بهذا القصص , بعدما قال له في مطلع السورة: لعلك باخ نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين , وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون . . ثم أخذ يقص عليه أبناء المكذبين المعرضين المستهزئين , وما حاق بهم من العذاب الأليم .

(وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟) . .

وهذا هو المشهد الأول: مشهد التكليف بالرسالة لموسى - عليه السلام - وهو يبدأ بإعلان صفة القوم: (القوم الظالمين) فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال , وظلموا بني إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويعذبونهم بالسخرة والنكال . . لذلك يقدم صفتهم ثم يعينهم " قوم فرعون " ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان: ألا يتقون ؟ ألا يخشون ربهم ؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم ؟ ألا يرجعون عن غيهم ؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجب ! وكذلك كل من كان على شاكلتهم من الظالمين !

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديدا على موسى - عليه السلام - فهو يعرفه , ويعرف ظلم فرعون وعتوه وجبروته , ويدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم . ومن ثم يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور لا ليتصل أو يعتذر عن التكليف , ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير .

(قال: رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون . ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون).

والظاهر من حكاية قوله - عليه السلام - أن خوفه ليس من مجرد التكذيب , ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين , وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده . إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه: (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) ومن شأن هذه الحبسة أن تنشأ حالة من ضيق الصدر , تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام . وتزداد كلما زاد الانفعال , فيزداد الصدر ضيقا . . . وهكذا . . . وهي حالة معروفة . فمن هنا خشى موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون . فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته , وطلب إليه أن يوحى إلى هارون أخيه , ويشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف , لا نكوصا ولا اعتذارا عن التكليف . فهارون أفصح لسانا ومن ثم هو أهدأ انفعالا ; فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحااجة والبيان . ولقد دعا موسى ربه - كما ورد في سورة طه - ليحل هذه العقدة من لسانه , ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيرا ومعينا . .

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15)

وكذلك الشأن في قوله:(ولهتم علي ذنب فأخاف أن يقتلون). . فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة , والتخلي عن التكليف . ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون . حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده قام هارون من بعده بالرسالة , وأتم الواجب كما أمره ربه دون تعويق .

فهو الاحتياط للدعوة لا للداعية . الاحتياط من أن يحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المناقحة عن رسالة ربه وبيانها , فتبدوا الدعوة ضعيفة قاصرة . والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوة ربه التي كلف أداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص . وهذا هو الذي يليق بموسى - عليه السلام - الذي صنعه الله على عينه , واصطنعه لنفسه .

ولما علمه ربه من حرصه هذا وإشفاقه واحتياطه أجابه إلى ما سأل , وطمأنه مما يخاف . والتعبير هنا يختصر مرحلة الاستجابة , ومرحلة الإرسال إلى هارون , ومرحلة وصول موسى إلى مصر ولقائه لهارون ; ويبرز مشهد موسى وهارون مجتمعين يتلقيان أمر ربهما الكريم , في نفس اللحظة التي يطمئن الله فيها موسى , وينفي مخاوفه نفيا شديدا , في لفظه تستخدم أصلا للردع وهي كلمة (كلا)!

(قال: كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا: إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل).

كلا . لن يضيق صدرك ويحتبس لسانك . وكلا لن يقتلوك . فأبعد هذا كله عن بالك بشدة . واذهب أنت وأخوك . (فاذهبا بآياتنا) وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء - والسياق يختصرهما هنا لأن التركيز في هذه السورة موجه إلى موقف المواجهة وموقف السحرة وموقف الغرق والنجاة . اذهبا (إنا معكم مستمعون) فآية قوة ? وأي سلطان ? وأي حماية ورعاية وأمان ? والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان . ولكن الصحبة المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد . فهو يرسمها في صورة الاستماع , الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه . وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة . وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .

اذهبا (فأتيا فرعون) فأخبراه بمهمتكما في غير حذر ولا تلجلج: (فقولا: إنا رسول رب العالمين) وهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول رسول رب العالمين . في وجه فرعون الذي يدعي الألوهية , ويقول لقومه: (ما علمت لكم من إله غيري) فهي المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى , بلا تدرج فيها ولا حذر . فهي حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة .

(إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل). . وواضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى - عليه السلام - في القرآن , أنه لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته . إنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون . وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل - وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام - فبهت هذا الدين في نفوسهم , وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون وبعيد تربيتهم على دين التوحيد .

الدرس الثاني: 18 - 37 المواجهة بين موسى وفرعون

وإلى هنا نحن أمام مشهد البعثة والوحي والتكليف . ولكن الستار يسدل . لنجدنا أمام مشهد المواجهة . وقد اختصر ما هو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية:

(قال ألم نربك فينا وليدا , ولبثت فينا من عمرك سنين ? وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ?

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُبْرِكْ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ (20) فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

قال: فعلتها إذن وأنا من الصالين . ففررت منكم لما خفتكم , فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين . وتلك نعمه تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل).

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة: (إنا رسول رب العالمين). ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم! (أن أرسل معنا بني إسرائيل). فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيبا في قصره منذ أن التقطوا تابوته . وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وجده يتعارك مع الإسرائيلي . وقيل: إن هذا القبطي كان من حاشية فرعون . فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين ! ومن ثم بدأ فرعون متهكما مستهزئا مستعجبا:

(قال: ألم نربك فينا وليدا , ولبثت فينا من عمرك سنين ? وفعلت فعلتك التي فعلت , وأنت من الكافرين). . فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد ? أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ? ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته , وتدعو إلى إله غيره !?

وما بالك - وقد لبثت فينا من عمرك سنين - لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدعيها اليوم ; ولم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم !?

ويذكره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم: (وفعلت فعلتك التي فعلت). . فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة ! فعلتها (وأنت من الكافرين) برب العالمين الذي تقول به اليوم , فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين !

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردا قاتلا لا يملك موسى - عليه السلام - معه جوابا , ولا يستطيع مقاومة . وبخاصة حكاية القتل , وما يمكن أن يعقبها من قصاص , يتهدده به من وراء الكلمات !

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة لسانه - انطلق - يجيب:

قال: فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم , فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ! . .

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل , أندفع اندفاع العصبية لقومي , لا اندفاع العقيدة التي عرفتھا اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة . (ففررت منكم لما خفتكم) على نفسي . فقسم الله لي الخير: ووهب لي الحكمة (وجعلني من المرسلين) فلست بدعا من الأمر , إنما أنا واحد من الرعيل (من المرسلين) .

ثم يجيبه تهكما بتهكم . ولكن بالحق . (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) . . فما كانت تربيتي في بيتك وليدا إلا من جراء استعبادك لبني إسرائيل , وقتلك أبناءهم , مما اضطر أمي أن تلقيني في التابوت , فتقذف بالتابوت في الماء , فتلتقطونني , فأربي في بيتك , لا في بيت أبي . فهل هذا هو ما تمنه علي , وهل هذا هو فضلك العظيم !?

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة , وراح يسأله عن صميم دعواه . ولكن في تجاهل وهزاء وسوء أدب في حق الله الكريم:

(قال فرعون: وما رب العالمين ?) . .

إنه - قبحه الله - يسأل: أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول: إنك من عنده رسول ? وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه , المتهمك على القول والقائل , المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور , غير قابلة لأن تكون موضوع حديث !

فيجيبه موسى - عليه السلام - بالصفة المشتملة على ربوبيته - تعالى - للكون المنظور كله وما فيه:

(قال: رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين) . .

وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ويغطيه . . إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك - يا فرعون - ولا علمك . وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادي النيل . وهو ملك صغير ضئيل , كالذرة أو الهباءة في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما . وكذلك كان جواب موسى - عليه السلام - يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه , وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل , والتفكير فيمن يكون ربه . . فهو رب العالمين ! . . ثم عقب على هذا التوجيه بما حكايته : (إن كنتم موقنين) فهذا وحده هو الذي يحسن اليقين به والتصديق .

والتفت فرعون إلى من حوله , يعجبهم من هذا القول , أو لعله يصرفهم عن التأثير به , على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب:

(قال لمن حوله: ألا تستمعون?). .

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب , الذي لا عهد لنا به , ولا قاله أحد نعرفه !

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين .

(قال: ربكم ورب آبائكم الأولين). .

وهذه أشد مساسا بفرعون ودعواه وأوضاعه , فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه , فما هو إلا واحد من عبده . لا إله كما يدعي بين قومه ! وهو رب قومه , فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم ! وهو رب آبائهم الأولين . فالورثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة . فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين !

وإنها للقاصمة لفرعون . فما يطبق عليها سكوتا والملا حوله يستمعون . ومن ثم يرمي قائلها في تهكم بالجنون:

(قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون). .

إن رسولكم الذي أرسل إليكم . . يريد أن يتهمك على مسألة الرسالة في ذاتها , فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم , لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها . ويتهم موسى - عليه السلام - بالجنون , ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم . وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين .

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى , فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين:

قَالَ لَئِن آتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ (29) قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (30) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَهُ لِيُؤْخَذَ بِكَ بِذَنْبِكُمْ وَلِيُؤْخَذَ بِكَ بِذَنْبِكُمْ وَلِيُؤْخَذَ بِكَ بِذَنْبِكُمْ (32) وَتَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (33)

(قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما . إن كنتم تعقلون). .

والمشرق والمغرب مشهذان معروضان للأنظار كل يوم ; ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما , وشدة الفتهما . واللفظ يدل على الشروق والغروب . كما يدل على مكاني الشروق والغروب . وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصريفهما . فمن يصرّفهما إذن ومن ينشئهما بهذا الإطراد الذي لا يتخلف مرة ولا يبطل عن أجله المرسوم ? إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هذا , ويوقظ العقول الغافية إيقاظا . وموسى - عليه السلام - يثير مشاعرهم , ويدعوهم إلى التدبر والتفكير: (إن كنتم تعقلون). .

والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب , وصحوة القلوب ; ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة ; ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية . ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى وبثور , عندما يمس بقوله هذا

أوتار القلوب . فينهى الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح , الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين:

قال:لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين . .

هذه هي الحجة وهذا هو الدليل:التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين . فليس السجن عليه ببعيد . وما هو بالإجراء الجديد ! وهذا هو دليل العجز , وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع . وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد !

غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه . . وكيف وهو رسول الله ? والله معه ومع أخيه ? فإذا هو يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يغلقها ويستريح . يفتحها بقول جديد , وبرهان جديد:

(قال:أولو جئتكم بشيء مبین ؟) . .

وحتى لو جئتكم ببرهان واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين ? وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ; ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته , وهو يدعي أنه مجنون . ومن ثم وجد نفسه مضطرا أن يطلب منه الدليل:

(قال:فأت به إن كنت من الصادقين) . .

إن كنت من الصادقين في دعواك ; أو إن كنت من الصادقين في أن لديك شيئا مبينا . فهو ما يزال يشكك في موسى , خيفة أن تترك حجته في نفوس القوم شيئا .

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين ; وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه:

(فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبین . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) . .

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلا إلى ثعبان تدب فيه الحياة , وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا يدل على هذا بقوله: (فإذا هي) فلم يكن الأمر تخيلا , كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء , إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة .

ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر , معجزة تقع في كل لحظة , ولكن الناس لا يلقون لها

قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي نَذَرْتُ لَكُمْ عَذَابًا مُّهِمًّا (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَعْمَى اسْمِعْ مِنْ رَبِّكَ عَذَابَ الْحَرِيقِ (37) فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّآ تَتَّبِعُوا السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمَّا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (41) قَالَ تَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)

بالا , لطول الألفه والتكرار , أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي فأما في مثل هذا المشهد . وموسى - عليه السلام - يلقي في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب .

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ; فأسرع يقاومها ويدفعها ; وهو يحس ضعف موقفه , ويكاد يتملق القوم من حوله ; وبهيج مخاوفهم من موسى وقومه , ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة:

قال للملا حوله إن هذا لساحر عليم , يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره , فماذا تأمرون ? . .

وفي قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحرا ; فهو يصف صاحبها بأنه ساحر(عليم). ويبدو ذعره من تأثير القوم بها فهو يغريهم به: (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره). ويبدو تضعضه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إله , فيطلب أمرهم ومشورتهم: (فماذا تأمرون ?) ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون !

وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تنزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلينون في القول بعد التجبر . ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام , ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى . ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر , ثم إذا هم هم جابرة مستبدون ظالمون !

وأشار عليه الملاً ; وقد خدعتهم مكيدته , وهم شركاء فرعون في باطله , وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ; وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير , حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول . . أشاروا عليه أن يلقي سحره بسحر مثله , بعد التهيئة والاستعداد:

(قالوا:أرجه وأخاه . وابعث في المدائن حاشرين , يأتوك بكل سحار عليم). .

أي أمهله وأخاه إلى أجل ; وابعث رسلك إلى مدائن مصر الكبرى , يجمعون السحرة المهرة , لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه .

الدرس الثالث: 38 - 40 قدوم السحرة لتحدي موسى

وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يحشدون , والناس يجمعون للمباراة , وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان ; وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل , أو بين الإيمان والطغيان .

(فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس:هل أنتم مجتمعون , لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالين ?). . وتظهر من التعبير حركة الإهاجه والتحميس للجماهير: (هل أنتم مجتمعون , لعلنا نتبع السحرة)هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد , ليترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي ! والجماهير دائما تتجمع لمثل هذه الأمور , دون أن تفتن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويبعثون , ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات , ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس . وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام !

الدرس الرابع: 41 - 42 اتفاق فرعون مع السحرة

ثم يحيى مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة ; يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ;

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) قَالَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ (52) فَارْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) وَتَلْقَوْنَ مِنْ فِرْعَوْنَ الْوَعْدَ بِالْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالْقُرْبَىٰ مِنْ عَرْشِهِ الْكَرِيمِ !

فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ? قال: نعم , وإنكم لمن المقربين . .

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية ; تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره ; ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية , ولا شيء سوى الأجر والمصلحة . وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائما في كل مكان وفي كل زمان .

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع . وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر . يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه . وهو بزعمه الملك والإله !

الدرس الخامس: 43 - 56 المباراة وإيمان السحرة والإضطهاد والخروج

ثم إذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام:

(قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم , وقالوا: بعزة فرعون إننا لنحن الغالبون: فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون , فألقى السحرة ساجدين . قالوا: آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف , ولأصلبنكم أجمعين . قالوا: لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون . إننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين). .

ويبدأ المشهد هادئا عاديا . إلا أنه يشي منذ البدء باطمئنان موسى إلى الحق الذي معه ; وقلة اكرثائه لجموع السحرة المحشودين من المدائن , المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة , ووراءهم فرعون وملؤه , وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة . . يتجلى هذا الاطمئنان في تركه إياهم يبدأون:

(قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون). .

وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة: (ألقوا ما أنتم ملقون). . بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام .

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته:

(فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون). .

ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم , كما فصله في سورة الأعراف وطه , ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق , وينتهي مسارعا إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل ; لأن هذا هو هدف السورة الأصيل .

(فألقى موسى عصاه , فإذا هي تلقف ما يأفكون). .

ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة ; فلقد بذلوا غاية الجهد في فهم الذي عاشوا به وأتقنوه ; وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه . وهم جمع كثير . محشود من كل مكان . وموسى وحده وليس معه إلا عصاه . ثم إذا هي تلقف ما يأفكون ; واللطف أسرع حركة للأكل . وعهدهم بالسحر أن يكون تخيلا , ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقا . فلا تبقى لها أثرا . ولو كان ما جاء به موسى سحرا , لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعنها . ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلا !

عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلا . وهم أعرف الناس بأنه الحق:

(فألقي السحرة ساجدين . قالوا: آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون). .

وهم قد كانوا منذ لحظة ماجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم , ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية . ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولهم تحويلا . لقد كانت هزة رجتهم رجا , وخضتهم خضا ; ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم , فأزالت عنها ركام الضلال , وجعلتها صافية حيه خاشعة للحق , عامرة بالإيمان , في لحظات قصار . فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجدا , بغير إرادة منهم , تتحرك ألسنتهم , فتنتطق بكلمة الإيمان , في نصاعة وبيان: (آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون).

وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب , فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلا . وصدق رسول الله [ص :] " ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن . إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه " . وهكذا انقلب السحرة الماجورون , مؤمنين من خيار المؤمنين . على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه . لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان في وجه الطاغية من عواقب ونتائج , ولا يعنيههم ماذا يفعل أو ماذا يقول .

ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجيء وقع الصاعقة على فرعون وملئه . فالجماهير حاشدة . وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المباراة . عبأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلي , ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره , ويريد أن يجعل الحكم لقومه ; وأن السحرة سيغلبونه ويفحمونه . . ثم ها هم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته . ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب ; ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله , ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله , ويخلعون عنهم عبادة

فرعون , وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته , وانتظروا أجره , واستفتحوا بعزته !

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون , إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش . أسطورة الألوهية , أو بنوته للآلهة - كما كان شائعا في بعض العصور - وهؤلاء هم السحرة . والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها . ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين , رب موسى وهارون , والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يلهونهم بها . فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة ? والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشا ولا تحمي حكما .

إن لنا أن نقدر زعر فرعون لهذه المفاجأة , وذعر الملاء من حوله , إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة ; وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجدا معترفين منيبين .

عندئذ جن جنون فرعون , فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال . بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى !

قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف , ولأصلبنكم أجمعين . .

(آمنتم له قبل أن آذن لكم). . لم يقل آمنتم به . إنما عده استسلاما له قبل إذنه . على طريقة المناورات التي يديرها صاحبها وهو مالك لإرادته , عارف بهدفه , مقدر لعاقبته . ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التي مست قلوبهم . ومتى كان للطغاة قلوب تشعير بمثل هذه اللامسات الوضيئة ? ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير: (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة - وهم من الكهنة - كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تبناه , أو كان يختلف إليهم في المعابد . فارتكن فرعون إليهم الصلة البعيدة , وقلب الأمر فبدلا من أن يقول: إنه لتلميذكم قال: إنه لكبيركم . ليزيد الأمر ضخامة وتهويلا في أعين الجماهير !

ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين:

(فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين). .

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية , حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه , يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة , بلا تحرج من قلب أو ضمير . . وإنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول . . فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور !

إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان . القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان . القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمله من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير:

(قالوا: لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين). .

لا ضير . لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف . لا ضير في التصليب والعذاب . لا ضير في الموت والاستشهاد . . لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . . وليكن في هذه الأرض ما يكون: فالمطمع الذي تتعلق به ونرجوه (أن يغفر لنا ربنا خطايانا) جزاء (أن كنا أول المؤمنين) . . وأن كنا نحن السابقين . .

يا لله ! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر . وإذ يفيض على الأرواح . وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس . وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين . وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر , فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد .

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة . لا يزيد شيئاً . لبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق . وهو يربي به النفوس في مكة وهي تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب .

فأما بعد ذلك فالله يتولى عباده المؤمنين . وفرعون يتآمر ويجمع جنوده أجمعين:

(وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجمع حاذرون) . .

وهنا فجوة في الوقائع والزمن لا تذكر في هذا الموضوع . فقد عاش موسى وبنو إسرائيل فترة بعد المباراة , وقعت فيها الآيات الأخرى المذكورة في سورة الأعراف قبل أن يوحى الله لموسى بالرحيل بقومه . ولكن السياق هنا يطوبها ليصل إلى النهاية المناسبة لموضوع السورة واتجاهها الأصيل .

لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يسري بعباده . وأن يرحل بهم ليلاً , بعد تدبير وتنظيم . ونباه أن فرعون سيتبعهم بجنده ; وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر [وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات]

وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة , فأمر بما يسمى "التعبئة العامة " وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود , ليدرك موسى وقومه ; ويفسد عليهم تدبيرهم ; وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير !

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند . . ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون , ويقوة موسى ومن معه

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ (56)
فَأَخْرَجْنَا هُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّآ لَمُدْرِكُونَ (61)

وعظم خطرهم , حتى ليجتاح الملك الإله - بزعمه ! - إلى التعبئة العامة . ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين:

(إن هؤلاء لشرذمة قليلون)!

ففيهم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم , والاحتشاد لهم وهم شرذمة قليلون !

(وإنهم لنا لغائظون).. .

فهم يأتون من الأفعال والأقوال ما يغيظ ويغضب وبشر!

وإذن فلهم شأن وخطر على كل حال ! فليقل العملاء: إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد:

(وإنا لجميع حاذرون).. .

مستيقظون لمكائدهم , محتاطون لأمرهم , ممسكون بزمام الأمور !

إنها حيرة الباطل المتجبر دائما في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين !

الدرس السادس: 57 - 59 إخراج آل فرعون لإهلاكهم

وقبل أن يعرض المشهد الأخير , يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع . وورثة بني إسرائيل المستضعفين:

(فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك , وأورثناها بني إسرائيل).. .

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويقفون أثرهم . فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة . وكانت إخراجا لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ; فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم ! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يقفون أثر المؤمنين . تعجيلا بالجزاء على الظلم والبطر والبغي الوخيم .

(وأورثناها بني إسرائيل).. .

ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ; وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه . لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه . فهي وراثه لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم .

الدرس السابع: 60 - 68 هلاك فرعون ونجاة المؤمنين

وبعد هذا الاعتراض يجيء المشهد الحاسم الأخير:

فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون . قال: كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . .

لقد أسرى موسى بعباد الله , بوحي من الله وتديير . فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر . ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته . والمعركة تصل إلى ذروتها . . إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ولا هم يملكون خوضه وما هم بمسلحين . وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون !

وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم:

(قال أصحاب موسى: إنا لمدركون).. .

وبلغ الكرب مداه , وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين !

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه , لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه , واليقين بعونه , والتأكد من النجاة , وإن كان لا يدري كيف تكون . فهي لا بد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه .

(قال: كلا إن معي ربي سيهدين).

كلا . في شدة وتوكيد . كلا لن نكون مدركين . كلا لن نكون هالكين . كلا لن نكون مفتونين . كلا لن نكون ضائعين (كلا إن معي ربي سيهدين) بهذا الجزم والتأكيد واليقين . وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب , وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون:

(فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر) . .

ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر . فهذا مفهوم . إنما يعجل بالنتيجة:

(فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم) . .

ووقعت المعجزة , وتحقق الذي يقول عنه الناس: مستحيل . لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور . والله الذي خلق السنن قادر على أن يجربها وفق مشيئته عندما يريد .

وقعت المعجزة وانكشف بين فرقي الماء طريق . ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم . واقتحم بنو إسرائيل . .

ووقف فرعون من جنوده مبعوثا مشدوها بذلك المشهد الخارق , وذلك الحادث العجيب .

ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتا فأطال الوقوف - وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف - قبل أن يأمر جنوده بالاقترام وراءهم في ذلك الطريق العجيب .

وتم تدبير الله . فخرج بنو إسرائيل من الشاطئ الآخر , بينما كان فرعون وجنوده بين فرقي الماء أجمعين . وقد قربهم الله لمصيرهم المحتوم:

(وأزلفنا ثم الآخريين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) . .

(ثم أغرقنا الآخريين)!!!

ومضت آية في الزمان , تتحدث عنها القرون . فهل آمن بها الكثيرون ?
إن في ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين .

فآيات الخارقة لا تستتيع الإيمان حتما . وإن خضع لها الناس قسرا . إنما الإيمان هدي
في القلوب .

(وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . .

التعقيب المعهود في السورة بعد عرض الآيات والتكذيب . . .

الوحدة الثالثة: 69 - 104 الموضوع: لقطات من قصة إبراهيم عليه السلام

مقدمة الوحدة

مضت قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ; وانتهت بتلك النهاية , وفيها
البشرى للمؤمنين المستضعفين المضطهدين - كما كانت القلة المؤمنة يومذاك في مكة
- وفيها الدمار للظالمين المتجبرين الذين يشبه موقفهم موقف المشركين .

فالآن تتبعها قصة إبراهيم - عليه السلام - وقومه . ويؤمر الرسول [ص] أن يتلوها على
المشركين . ذلك أنهم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم , وأنهم على دينه القديم ; وهم
يشركون بالله , ويقىمون الأصنام لعبادتها في بيته الحرام , الذي بناه إبراهيم خالصا لله .
فاتل عليهم نبأ إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة ما يزعمون .

والقصص في هذه السورة لا يتبع الخط التاريخي , لأن العبرة وحدها هي المقصودة .
فأما في سورة الأعراف مثلا فقد كان الخط التاريخي مقصودا , لعرض خط وراثة
الأرض , وتتابع الرسل من عهد آدم - عليه السلام - فمضى القصص فيها يتبع خط
التاريخ , منذ الهبوط من الجنة , وبدء الحياة البشرية .

والحلقة التي تعرض هنا من قصة إبراهيم - عليه السلام - هي حلقة الرسالة إلى قومه ,
وحواره معهم حول العقيدة , وإنكار الآلهة المدعاة , والاتجاه بالعبادة إلى الله . والتذكير
باليوم الآخر . يعقب هذا مشهد كامل من مشاهد القيامة , يتنكر فيه العباد للآلهة ,
ويندمون على الشرك الذي انتهى بهم إلى ما هم فيه . كأنهم قد صاروا فعلا إلى ما هم
فيه ! وهنا عبرة القصة للمشركين . . ومن ثم يتوسع في الحديث عن مقومات
عقيدة التوحيد , وفساد عقيدة الشرك ; ومصير المشركين في يوم الدين . لأن التركيز
متجه إليها . ويختصر ما عدا ذلك مما يفصله في سور أخرى .

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم - عليه السلام في البقرة , والأنعام , وهود ,
وإبراهيم , والحجر , ومريم , والأنبياء , والحج . وكانت في كل سورة مناسبة لسياقها
العام . وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوها وظلها .

عرضت في سورة البقرة حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل , ودعائه أن يجعل الله البلد
الحرام آمنا , وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانيه إنما هي للمسلمين , الذين يتبعون ملته
, لا لمن يدعون بالنسب وراثته . وكان هذا بصدد مخالقات بني إسرائيل , وطردهم
ولعنهم , وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين . .

وعرضت كذلك حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله الذي يحيي ويميت , والذي يأتي بالشمس من المشرق , وتحديه للملك أن يأتي بها من المغرب . فبهت الذي كفر .

كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى , وأمره بذبح أربعة من الطير , وتوزيع أشلائهن على الجبال , ثم إحيائها بين يديه , فجاءت تسعى إليه .

وهذا وذلك في معرض الحديث في السورة , عن آيات الله وقدرته على الإمامة والإحياء .

وعرضت في الأنعام حلقة بحثه عن ربه , واهتدائه إليه , بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس , وتتبع مشاهد الكون . وكان ذلك في السورة التي تدور حول العقيدة , وآيات الله في الكون , ودلالاتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له .

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيريه بإسحاق , وكان ذلك في سياق قصة لوط , ومرور الملائكة المكلفين تدمير قرينته في طريقهم بإبراهيم . وفيها تدور رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين .

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت المحرم لمن أسكنه من ذريته بواد غير زرع ; وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق ; وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته , وأن يقبل دعائه , ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . . وكان سياق السورة كله هو عرض أمة الرسل ; برسالة واحدة , هي التوحيد ; وعرض المكذبين بأمة الرسل صفا واحدا كذلك ; وكأنما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود !

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل , في صدد ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين , وعذابه للعصاة المذنبين .

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه , وغلظة أبيه عليه , واعتزاله لأبيه وقومه , وهبة إسماعيل وإسحاق له . وذلك في السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده . وجوها كله تظلل الرحمة والود واللين .

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه , وزرايته على أصنامهم . وتحطيم هذه الأصنام , وإلقائه في النار التي كانت بردا وسلاما عليه بأمر الله , ونجاته هو وابن أخيه لوط إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . وذلك في صدد استعراض أمة الرسل , ورعاية الله لهذه الأمة واتجاهها إلى عبادة الله الواحد الذي ليس له شريك .

ووردت في سورة الحج إشارة إلى أمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين . .

وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَقْرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (77)
الدرس الأول:

(واتل عليهم نبأ إبراهيم , إذ قال لأبيه وقومه: ما تعبدون?). .

اتل عليهم نبأ إبراهيم الذي يزعمون أنهم ورثته , وأنهم يتبعون ديانتته . اتله عليهم وهو يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام كهذه الأصنام التي يعبدها المشركون في مكة ; وهو يخالف أباه وقومه في شركهم , وينكر عليهم ما هم عليه من ضلال , ويسألهم في عجب واستنكار: (ما تعبدون?).

(قالوا: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين)!

وهم كانوا يسمون أصنامهم آلهة . فحكاية قولهم: إنها أصنام . تنبىء بأنهم لم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر , وأنهم مع ذلك يعكفون لها , ويدأبون على عبادتها . وهذه نهاية السخف . ولكن العقيدة متى زاغت لم يفتن أصحابها إلى ما تنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم !

ويأخذ إبراهيم - عليه السلام - يوقظ قلوبهم الغافية , وينبه عقولهم المتبلدة , إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير:

(قال هل يسمعونكم إذ تدعون ? أو ينفعونكم أو يضرون ?)

فأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعبده الذي يتوجه إليه بالعبادة والابتهال ! وهذه الأصنام لا تسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة , ويدعونها للنفع والضرر . فإن كانت صماء لا تسمع فهل هي تملك النفع والضرر ? لا هذا ولا ذاك يمكن أن يدعوه !

ولم يجب القوم بشيء عن هذا فهم لا يشكون في أن إبراهيم إنما يتهمك ويستنكر ; وهم لا يملكون حجة لدفع ما يقول . فإذا تكلموا كشفوا عن التحجر الذي يصيب المقلدين بلا وعي ولا تفكير:

(قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون). .

إن هذه الأصنام لا تسمع ولا تضر ولا تنفع . ولكننا وجدنا آباءنا يعكفون عليها , فعكفنا عليها وعبدناها !

وهو جواب مخجل . ولكن المشركين لم يخجلوا أن يقولوه , كما لم يخجل المشركون في مكة أن يفعلوه . فقد كان فعل الآباء لأمر كفيلا باعتباره دون بحث ; بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آبائهم , فيخلوا باعتبار أولئك الآباء , ويقروا أنهم كانوا على ضلال . وهذا مالا يجوز في حق الذاهبين ! وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات الجوفاء في وجه الحق , فيؤثرونها على الحق , في فترات التحجر العقلي والنفسي والانحراف التي تصيب الناس , فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفكير .

وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم - على حلمه وأناته - إلا أن يهزم بعنف , ويعلن عداوته للأصنام , وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات !

(قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ? فإنهم عدو لي إلا رب العالمين). .

وهكذا لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدائه لألتهم وعقيدتهم ، هم وآباؤهم - وهم آباؤه - الأقدمون !

وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم ؛ وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون .

واستثنى إبراهيم (رب العالمين) من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون: (فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) . . فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عبد الله ، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتتحرف ؛ وقد يكون من عبد الله ولكن

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) أشرك معه آلهة أخرى مدعاة . فهو الاحتياط إذن في القول ، والدقة الواعية في التعبير ، الجديران بإبراهيم - عليه السلام - في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق .

ثم يأخذ إبراهيم - عليه السلام - في صفة ربه . رب العالمين . وصلته به في كل حال وفي كل حين . فنحس القربى الوثيقة ، والصلة الندية ، والشعور بيد الله في كل حركة ونأمة ، وفي كل حاجة وغاية .

(الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقيني . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) . .

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله في تصوير صلته به ، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه . وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حب ؛ وأنه يصفه كأنه يراه ، وبحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه . . والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل ، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد . .

(الذي خلقني فهو يهدين) . . الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم ؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني ، ووظائفي ومشاعري ، وحالي ومالي: (فهو يهدين) إليه ، وإلى طريقي الذي أسلكه ، وإلى نهجي الذي أسير عليه . وكانما يحس إبراهيم - عليه السلام - أنه عجينة طيبة في يد الصانع المبدع ، يصوغها كيف شاء ، على أي صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة وبقين .

(والذي هو يطعمني ويسقيني . وإذا مرضت فهو يشفين) . . فهي الكفالة المباشرة الحانية الراحية ، الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض . ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه - وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح - إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه . . ويشفيه . . ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يتليه .

(والذي يميتني ثم يحيين) . . فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت ، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق .

(والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين). . فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم - عليه السلام - النبي الرسول , الذي يعرف ربه هذه المعرفة , ويشعر بربه هذا الشعور , ويحس في قرارة نفسه هذه القربى . . أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين . فهو لا يبرىء نفسه , وهو يخشى أن تكون له خطيئة , وهو لا يعتمد على عمله , ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً , إلا أنه يطمع في فضل ربه , ويرجو في رحمته , وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة .

إنه شعور التقوى , وشعور الأدب , وشعور التحرج ; وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظمة عظيمة , وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل .

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصرفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض . والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقدير العبد . وهي العناصر التي ينكرها قومه , وينكرها المشركون .

ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد , يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع ;

(رب هب لي حكماً وألحِقني بالصالِحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87)

واغفر لأبي إنه كان من الصالِحين . ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون , إلا من أتى الله بقلب سليم).

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض ; ولا حتى صحة البدن . إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى ; تحركه مشاعر أصفى . ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه . والذي ذاق فهو يطلب المزيد ; والذي يرجو وبخاف في حدود ما ذاق وما يريد .

(رب هب لي حكماً). . أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة , فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى .

(والأحقني بالصالِحين). . يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم . فيا للتواضع ! ويا للتحرج ! ويا للإشفاق من التقصير ! ويا للخوف من تقلب القلوب ! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالِحين ! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالِحين !

(واجعل لي لسان صدق في الآخرين). . دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد , لا بالنسب ولكن بالعقيدة ; فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق , ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم . ولعلها هي دعوته في موضع آخر . إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول: ربنا واجعلنا

مسلمين لك . ومن ذريتنا أمة مسلمة لك , وأرنا مناسكنا , وتب علينا , إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك , ويعلمهم الكتاب والحكمة , ويزكيهم , إنك أنت العزيز الحكيم . . وقد استجاب الله له , وحقق دعوته , وجعل له لسان صدق في الآخرين , وبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين . هي في عرف الناس أمد طويل , وهي عند الله أجل معلوم , تقتضي حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه .

(واجعلني من ورثة جنة النعيم). . . وقد دعا ربه - من قبل - أن يلحقه بال صالحين , بتوفيقه إلى العمل الصالح , الذي يسلكه في صفوفهم . وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون .

(واغفر لأبي إنه كان من الضالين). . . ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم - عليه السلام - من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد . ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له , فوفى بوعده . وقد بين القرآن فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى ; وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على موعده وعدها إياه (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب , إنما هي قرابة العقيدة . . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله , ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج ; وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة .

(ولا تخزني يوم يبعثون , يوم لا ينفع مال ولا بنون , إلا من أتى الله بقلب سليم) . . ونستشف من قوله إبراهيم - عليه السلام - :-(ولا تخزني يوم يبعثون)مدى شعوره بهول اليوم الآخر ; ومدى حيائه من ربه , وخشيته من الخزي أمامه , وخوفه من تقصيره . وهو النبي الكريم . كما نستشف من قوله:-(يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم). مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله , وتجرده من كل شائبة , ومن كل مرض , ومن كل غرض . وصفائه من الشهوات والانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودٌ إِيْلَيْسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نَسَوْنَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) قَمَا لَنَا مِنْ شَاقِقِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) قَلُّوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

تجعل له قيمة ووزنا(يوم لا ينفع مال ولا بنون); ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة , التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض ; وهي لا تزن شيئا في الميزان الأخير !

وهنا يرد مشهد من مشاهد القيامة يرسم ذلك اليوم الذي يتقيه إبراهيم ; فكأنما هو حاضر , ينظر إليه ويراه , وهو يتوجه لربه بذلك الدعاء الخاشع المنيب:

وأزلت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم: أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ فكذبوا فيها هم والغاوون ، وحنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون: تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ! .

لقد قربت الجنة وعرضت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين . ولقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ، الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين ، وإنهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون . حيث يسمعون التقرير والتأنيب ، قبل أن يكذبوا في الجحيم . . إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله - وذلك تساقق مع قصة إبراهيم وقومه وما كان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون - إنهم ليسألون اليوم: (أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟) أين هم (هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟) ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال لمجرد التقرير والتأنيب (فكذبوا فيها هم والغاوون وحنود إبليس أجمعون) . . كذبوا . . وإنا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكية ، كما ينهار الجرف فتنبعه الجروف . فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد كذب معهم جميع الغاوون . هم (وحنود إبليس أجمعون) . والجميع حنود إبليس . فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

ثم نستمع إليهم في الجحيم . . إنهم يقولون لألهتهم من الأصنام: (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) فنعيدكم عبادته . إما معه وإما من دونه . الآن يقولونها بعد فوات الأوان ! وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم ، الذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات ، وأنه لا جدوى من توزيع التبعات: (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع . . وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح ما فاتنا فيها ؟ (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) ! وما هو إلا التمني . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين !

ثم يجيء التعقيب المعهود: (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . .

وهو نفس التعقيب الذي جاء في السورة بعد عرض مصارع عاد وثمود وقوم لوط . كما جاء تعقبا على كل آية من آيات الله وقعت للمكذبين . فهذا المشهد من مشاهد القيامة عوض في سياق السورة عن مصارع المكذبين في الدنيا . إذ يصور نهاية قوم إبراهيم . ونهاية الشرك كافة . وهو موضع العبرة في قصص السورة جميعا . ومشاهد القيامة في القرآن تعرض كأنها واقعة ، وكأنما تشهدها الأبصار حين تتلى ، وتتملاها المشاعر ، وتهتز بها الوجدانات . كالمصارع التي تمت على أعين الناس وهم يشهدون .

الوحدة الرابعة: 105 - 122 الموضوع: لقطات من قصة نوح عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111)

مقدمة الوحدة

كما رجع السياق القهقري في التاريخ من قصة موسى إلى قصة إبراهيم , كذلك يرجع القهقري من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . إن الخط التاريخي ليس هو المقصود هنا , بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب

وقصة نوح , كقصة موسى وقصة إبراهيم , تعرض في سور شتى من القرآن . وقد عرضت من قبل في سورة "الأعراف" في الخط التاريخي للرسول والرسالات بعد هبوط آدم من الجنة عرضاً مختصراً , يتلخص في دعوته قومه إلى التوحيد , وإنذارهم عذاب يوم عظيم , واتهام قومه له بالضلال , وعجبهم من أن يبعث الله إليهم رجلاً منهم , وتكذيبهم له . ومن ثم إغراقهم ونجاته هو ومن معه بدون تفصيل .

وعرضت في سورة يونس باختصار كذلك في نهاية رسالته , إذ تحدى قومه فكذبوه . . ثم كانت نجاته ومن معه في الفلك , وإغراق الآخرين .

وعرضت في سورة "هود" بتفصيل في قصة الطوفان والفلك وما بعد الطوفان كذلك من دعائه لربه في أمر ابنه الذي أغرق مع المغرقين . وما كان بينه وبين قومه قبل ذلك من جدال حول عقيدة التوحيد .

وعرضت في سورة "المؤمنون" فذكر منها دعوته لقومه إلى عبادة الله الواحد , واعتراضهم عليه بأنه بشر منهم يريد أن يتفضل عليهم ; ولو شاء الله لأنزل ملائكة , واتهامه بالجنون . ثم توجهه إلى ربه يطلب نصرته . وإشارة سريعة إلى الفلك والطوفان .

وهي تعرض في الغالب في سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين - وكذلك في هذه السورة - وأظهر ما في الحلقة المعروضة هنا دعوته لقومه إلى تقوى الله , وإعلانه أنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى , وإياؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء - وهذا ما كان يواجهه رسول الله [ص] في مكة سواء بسواء - ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه . واستجابة الله له بإغراق المكذبين وتنجية المؤمنين .

(كذبت قوم نوح المرسلين). .

تلك هي النهاية . نهاية القصة . يبدأ بها لإبرازها منذ البداية . ثم يأخذ في التفصيل .

وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحاً . ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين . فالرسالة في أصلها واحدة , وهي دعوة إلى توحيد الله , وإخلاص العبودية له . فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين , فهذه دعوتهم أجمعين . والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره في مواضع كثيرة , بصيغ متعددة , لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية , تحتضن بها الدعوات جميعاً ; وتقسّم بها البشرية كلها إلى صفتين: صف المؤمنين وصف الكافرين , على مدار الرسالات ومدار القرون . وينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هي أمته , منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير . وإذا الصف الآخر هم الكفار في كل ملة وفي كل دين . وإذا المؤمن يؤمن بالرسول جميعاً , ويحترم الرسل جميعاً , لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد .

إن البشرية لا تنقسم في تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان . إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل . وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل . في كل زمان وفي كل مكان . وهكذا يتوحد الميزان في يد المسلم على مدار التاريخ كله ; وترتفع القيم في شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن , والقرايات الحاضرة أو الموعلة في بطن التاريخ . ترتفع فتصبح قيمة واحدة . هي قيمة الإيمان يحاسب بها الجميع , ويقوم بها الجميع .

(كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح: ألا تتقون ? إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون).

هذه هي دعوة نوح التي كذب فيها قومه - وهو أخوهم - وكان الأليق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق . ولكن قومه لم يابهاوا لهذه الصلة , ولم تلتن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم: (ألا تتقون ?) وتخافون عاقبة ما أنتم فيه ? وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته ?

وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد في هذه السورة . فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم . وهكذا قال نوح لقومه . وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح:

(إني لكم رسول أمين). . لا يخون ولا يخدع ولا يغش , ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما كلفه من التبليغ .

(فاتقوا الله وأطيعون). . وهكذا يعود إلى تذكيرهم بتقوى الله , ويحددها في هذه المرة , وينسبها إلى الله تعالى , ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم .

ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها , فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله , وما يطلب منهم اجرا جزاء هدايتهم إليه , فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس . وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائماً ضرورياً للدعوة الصحيحة , تمييزاً لها مما عهدته الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد . وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائماً مصدر ابتزاز للأموال بشتى الأساليب . فأما دعوة الله الحق فكان دعاتها دائماً متجردين , لا يطلبون اجرا على الهدى . فأجرهم على رب العالمين .

وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة , بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال: (فاتقوا الله وأطيعون). . ولكن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب . وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول:

(قالوا: أنؤمن لك واتبعك الأزدلون ?) . .

وهم يعنون بالأزدلين الفقراء . وهم السابقون إلى الرسل والرسالات , وإلى الإيمان والاستسلام . لا يصددهم عن الهدى كبرياء فارغة , ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة . ومن ثم فهم الملبون السابقون . فأما الملا من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم , وتقعد بهم مصالحهم , القائمة على الأوضاع المزيفة , المستمدة من الأوهام

قَالَ وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَيَّ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (115) قَالُوا لئن لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

والأساطير ، التي تلبس ثوب الدين . ثم هم في النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس ، حيث تسقط القيم الزائفة كلها ، وترتفع قيمة واحدة . قيمة الإيمان والعمل الصالح . قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين . بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم .

ومن ثم يجيبهم نوح الجواب الذي يقرر القيم الثابتة ؛ ويحدد اختصاص الرسول ، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون .

(قال: وما علمي بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين).

والكبراء يقولون دائما عن الفقراء: إن عاداتهم وأخلاقهم لا ترضي العلية ، ولا تطاق في أوساط الطبقة الراقية ذات الحس المرهف والذوق اللطيف ! فنوح يقول لهم: إنه لا يطلب إلى الناس شيئا سوى الإيمان . وقد آمنوا . فأما عملهم قبله فموكول إلى الله ، وهو الذي يزنه ويقدره . ويجزيهم على الحسنات والسيئات . وتقدير الله هو الصحيح (لو تشعرون) بالقيم الحقة التي ترجح في ميزان الله . وما وظيفتي إلا الإنذار والإفصاح: (إن أنا إلا نذير مبين).

فلما أن واجههم نوح - عليه السلام - بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم ؛ وعجزوا عن المضى في الجدل بالحجة والبرهان ، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان . لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان ، عندما تعوزهم الحجة ، ويعجزهم البرهان:

(قالوا: لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين).

وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح ، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة ، وعرف نوح أن القلوب الجاسية لن تلين

هنا توجه نوح إلى الولي الوحيد ، والناصر الفريد ، الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين:

(قال: رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحا ، ونجني ومن معي من المؤمنين).

وربه يعلم أن قومه كذبوه . ولكنه البث والشكوى إلى الناصر المعين ، وطلب النصفة ، ورد الأمر إلى صاحب الأمر: (افتح بيني وبينهم فتحا) يضع الحد الأخير للبغي والتكذيب: (ونجني ومن معي من المؤمنين) . .

واستجاب الله لنبيه الذي يتهدده الطغيان بالرجم ، لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله ، وطاعة رسوله ، لا يطلب على ذلك أجرا ، ولا ينتغي جاها ولا مالا:

(فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقيين) . .

هكذا في إجمال سريع . يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان في فجر البشرية . ويقرر مصير كل معركة تالية في تاريخ البشرية الطويل .

ثم يجيء التعقيب المكرور في السورة عقب كل آية من آيات الله العزيز الرحيم:

(إن في ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . .

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

الوحدة الخامسة: 123 - 140 الموضوع: قصة عاد مع هود عليه السلام

وقوم هود كانوا يسكنون الأحقاف , وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن . وقد جاءوا بعد قوم نوح , وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذي طهر وجه الأرض من العصاة .

وقد وردت هذه القصة في الأعراف مفصلة وفي هود كما وردت في سورة "المؤمنون" بدون ذكر اسم هود وعاد . وهي تعرض هنا مختصرة بين طرفيها: طرف دعوة هود لقومه , وطرف العاقبة التي انتهى إليها المكذبون منهم . وتبدأ كما بدأت قصة قوم نوح:

(كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود: ألا تتقون ? إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر , إن أجري إلا على رب العالمين) . .

فهي الكلمة الواحدة يقولها كل رسول: دعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله . وإعلان للزهديما لدى القوم من عرض الحياة , وترفع عن قيم الأرض الزائلة , وتطلع إلى ما عند الله من أجر كريم .

ثم يزيد ما هو خاص بحال القوم وتصرفاتهم , فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة , والإعلان عن الثراء , والتكاثر والاستطالة في البناء ; كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا , وما يسخرونه فيها من القوى , وغفلتهم عن تقوى الله ورقابته:

أتبنون بكل ريع آية تعبثون , وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ? :

والريع المرتفع من الأرض . والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة . وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة . ومن ثم سماه عبثا . ولو كان لهداية المارة , ومعرفة الإتجاه ما قال لهم: "تعبثون" . . فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد , وتنفق البراعة , وينفق المال فيما هو ضروري ونافع , لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة .

ويبدو كذلك من قوله: (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يذكر ; حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور , وتشديد العلامات على المرتفعات ; وحتى ليجول

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ (133) وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145)

في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت , ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء .

وبمضي هود في استنكار ما عليه قومه:

(وإذا بطشتم بطشتم جبارين) .

فهم عتاة غلاظ , يتجبرون حين يبطشون ; ولا يتخرجون من القسوة في البطش . شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التي يملكون .

وهنا يردهم إلى تقوى الله وطاعة رسوله , لينهه من هذه الغلظة الباطشة المتجبرة:

(فاتقوا الله وأطيعوا).

ويذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتناولون ويتجبرون . وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا , وبخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم , وأن يعاقبهم على ما أسرفوا في العبت والبطش والبطر الذميم !

(واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . .

وهكذا يذكرهم بالمنعم والنعمة على وجه الإجمال أولا: (أمدكم بما تعلمون). وهو حاضر بين أيديهم , يعلمونه ويعرفونه ويعيشون فيه , ثم يفصل بعض التفصيل: (أمدكم بأنعام وبنين , وجنات وعيون) وهي النعم المعهودة في ذلك العهد ; وهي نعمة في كل عهد . . ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم . في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب . فهو أخوهم , وهو واحد منهم , وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لا شك فيه .

ولكن هذه التذكرة وهذا التخويف , لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة . فإذا الإصرار والعناد والاستهتار .

(قالوا:سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) . .

فما يعنيها أن تعظ أو ألا تكون أصلا من الواعظين ! وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة . يتبعه ما يشي بالجمود والتحجر والاعتماد على التقليد !

(إن هذا إلا خلق الأولين . . وما نحن بمعذبين) . .

فحجتهم فيما هم عليه , وفيما يستنكره عليهم هود , أنه خلق الأولين ونهجهم . وهم يسرون على نهج الأولين ! ثم إنهم لينفون احتمال العذاب على خلق الأولين ! (وما نحن بمعذبين)!

ولا يستطرد السياق هنا في تفصيل ما ثار بينهم وبين رسولهم من جدل ; فيمضي قدما إلى النهاية:

(فكذبوه فأهلكناهم) . .

وفي كلمتين اثنتين ينتهي الأمر ; ويطوى قوم عاد الجبارون ; وتطوى مصانعهم التي يتخذون ; ويطوى ما كانوا فيه من نعيم , من أنعام وبنين وجنات وعيون !

وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكر على هذا النحو , وتغتر هذا الغرور , وتبعد عن الله كلما تقدمت في الحضارة , وتحسب أن الإنسان قد أصبح في غنية عن الله ! وهي تنتج من أسباب الدمار لغيرها , والوقاية لنفسها , ما تحسبه واقيا لها من أعدائها . . ثم تصح وتمسي فإذا العذاب يصب عليها من فوقها ومن تحتها . عن أي طريق .

(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . .

أَشْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضَيْمٌ (148) وَتَنْجُوتٍ مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا قَارِهِينَ (149) قَاتِلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (150) وَلَا يُطِيعُوا أَهْرَ الْمُشْرِكِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

الوحدة السادسة: 141 - 159 الموضوع: قصة ثمود مع صالح عليه السلام

إنها ذات الدعوة بالفاظها يدعوها كل رسول . ويوحده القرآن عن قصد حكاية العبارة التي يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهرًا ومنهجًا , في أصلها الواحد الذي تقوم عليه , وهو الإيمان بالله وتقواه , وطاعة الرسول الآتي من عند الله .

ثم يزيد ما هو من شأن ثمود خاصة , وما تقتضيه طبيعة الموقف وطبيعة الظروف . إذ يذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة - [وقد كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز , وقد مر النبي [ص] بدورهم المدمرة مع صحابته في غزوة تبوك] - ويخوفهم سلب هذه النعمة , كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه:

أتركون فيما ها هنا آمنين . في جنات و عيون . وزروع ونخل طلعتها هضيم . وتنتحون من الجبال بيوتا فارهين ؟ .

وإنهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح . ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه ؛ ولا يتدبرون منشأه ومآتاه ، ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذا النعيم . فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته ، ويخافوا زواله .

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية ، وتنبه فيها الحرص والخوف : (أتركون في ما ها هنا آمنين ؟) أتظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء وممتعة ونعمة . . وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم . . أتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت ، ولا يزعجكم سلب ، ولا يفزعكم تغيير ؟

أتركون في هذا كله من جنات و عيون ، وزروع متنوعات ، ونخل جيدة الطلع ، سهلة الهضم حتى كأن جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون ! وتتركون في البيوت تنتحونها في الصخور بمهارة وبراعة ، وفي أناقاة وفراهة ؟

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164)

وبعد أن يلمس قلوبهم هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوى ، وإلى الطاعة ، وإلى مخالفة الملاء الجائرين البعيدين عن الحق والقصد ، الميالين إلى الفساد والشر .

(فاتقوا الله وأطيعوا . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) . .

ولكن هذه اللمسات وهذه النداءات لا تصل إلى تلك القلوب الجاسية الجافية ، فلا تصغي لها ولا تلتين :

(قالوا: إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين) . .

إنما أنت ممن سحرت عقولهم فهم يهرفون بما لا يعرفون ! كأنما الدعوة إلى الله لا يدعوها إلا مجنون !

(ما أنت إلا بشر مثلنا) . . وتلك هي الشبهة التي ظلت تخايل للبشرية كلما جاءها رسول . فقد كان تصور البشرية القاصر للرسول عجيبا دائما ؛ وما كانت تدرك حكمة الله في أن يكون الرسول بشرا ، وما كانت تدرك كذلك تكريم هذا الجنس البشري باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصدر الهدى والنور .

وكانت البشرية تتصور الرسول خلقا آخر غير البشر . أو هكذا ينبغي أن يكون ؛ ما دام يأتي إليها بخبر السماء ، وخبر الغيب ، وخبر العالم المحجوب عن البشر . . ذلك أنها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الذي كرمه الله به ، وهو أنه موهوب القدرة على الاتصال

بالملا الأعلى وهو على هذه الأرض مقيم . يأكل وينام ويتزوج ويمشي في الأسواق .
ويعالج ما يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع , وهو متصل بذلك السر العظيم .

وكانت البشرية جيلا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنه حقا مرسل
من الله: فأت بأية إن كنت من الصادقين . . وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة , فاستجاب
الله لعبده صالح , وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة ; لا نخوض في وصفها كما خاض
المفسرون القدامى , لأنه ليس لدينا سند صحيح نعتمد عليه في هذا الوصف . فنكتفي
بأنها كانت خارقة كما طلبت ثمود .

(قال:هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم
عظيم). . .

لقد جاءهم بالناقة , على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوما للناقة ويوما لهم ,
لا يجورون عليها في يومها , ولا تجور عليهم في يومهم , ولا يختلط شرابها بشرابهم ,
كما لا يختلط يومها بيومهم . ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق , وإلا أخذهم
عذاب يوم عظيم .

فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين ? إنها لم تسكب الإيمان في القلوب الجافة ;
ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة . على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها . وإنهم لم
يحفظوا عهدهم , ولم يوفوا بشرطهم:

(فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ).

والعقر:النحر . والذين عقروها منهم هم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ولقد
حذرهم منهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير . ومن ثم كتبت خطيئتها على الجميع ,
وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم .

ولقد ندم القوم على الفعلة , ولكن بعد فوات الأوان وتصديق النذير:

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ). . . ولا يفصل نوحه هنا للمسارعة والتعجيل !

ثم يجيء التعقيب: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز
الرحيم . . .

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167)
الوحدة السابعة: 160 - 175 الموضوع: قصة لوط عليه السلام مع قومه

تجيء قصة لوط هنا . ومكانها التاريخي كان مع قصة إبراهيم . ولكن السياق التاريخي
ليس ملحوظا في هذه السورة - كما أسلفنا - إنما الملحوظ وحدة الرسالة والمنهج ,
وعاقبة التكذيب: من نجا للمؤمنين وهلاك للمكذبين .

ويبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح . يستنكر استهتارهم ; ويستجيش في
قلوبهم وجدان التقوى , ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة , ويطمئنهم إلى أنه لن يفجعهم

في شيء من أموالهم مقابل الهدى . ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ:

(أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون).

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط [وقد كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن] هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور , وترك النساء . وهو انحراف في الفطرة شنيع . فقد برأ الله الذكر والأنثى ; وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيبته في امتداد الحياة عن طريق النسل , الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى . فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكوني العام , الذي يجعل كل من في الكون وكل ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود . فأما إتيان الذكور الذكور فلا يرمي إلى هدف , ولا يحقق غاية , ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه . وعجيب أن يجد فيه أحد لذة . واللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة . فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط . ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا , لخروجهم من ركب الحياة , ومن موكب الفطرة , ولتعريضهم من حكمة وجودهم , وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد .

فلما دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ , واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم , والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها . . تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة , وإلى سنة الفطرة:

(قالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين).

وقد كان فيهم غريبا . وفد عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه , وترك وطنه وأرضه , وعبر الأردن

قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ تَجَنَّبْ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَتَجَنَّبَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ (171) ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِبِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَبًا مَّطَرُ الْمُنذِرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ عِثَبٍ آلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180)

مع إبراهيم والقلة التي أمنت معه . ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم , ليردهم عما هم فيه , فإذا بهم يهددونه بالإخراج من بينهم , إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم !

عندئذ لم يبق إلا أن يعالئهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ ; في تقزز واستبشاع:

(قال: إني لعملك من القالين). .

والقلى:الكره البالغ . يقذف به لوط في وجوههم في اشمئزاز . ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله:

(رب نجني وأهلي مما يعملون).. .

وهو لا يعمل عملهم ; ولكنه يحس بفطرته الصادقة أنه عمل مرد مهلك . وهو فيهم . فهو يتوجه إلى ربه أن ينجيه وأهله مما سيأخذ به قومه من التدمير .

واستجاب الله دعوة نبيه:

فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا في الغابرين . .

هذه العجوز هي امرأته - كما يذكر في سور أخرى - وقد كانت عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنكرة , وتعينهم عليها !

(ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا , فساء مطر المنذرين).. .

قيل خسفت قراهم وغطاها الماء . ومنها قرية سدوم . ويظن أنها ثابتة تحت البحر الميت في الأردن .

وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدنا كانت أهلة بالسكان . وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر , وجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين .

وعلى أية حال فقد قص القرآن نبأ قرى لوط - على هذا النحو - وقوله الفصل في الموضوع .

ثم يعقب على مصرعهم بالتعقيب المكرور:

(إن في ذلك لآية:وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم).. .

الوحدة التاسعة:176 - 191 الموضوع:لقطات من قصة موسى مع شعيب عليه السلام

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا الْبِئْسَ أَشْيَاءُهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَأَنْفَعُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِيلَةَ الْأُولِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَجَذَّهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)

وهذه قصة شعيب - ومكانها التاريخي قبل قصة موسى - تجيء هنا في مساق العبرة كبقية القصص في هذه السورة . وأصحاب الأيكة هم - غالبا - أهل مدين . والأيكة

الشجر الكثيف الملتف . ويبدو أن مدين كانت تجاورها هذه الغيضة الوريقة من الأشجار .
وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة .

وقد بدأهم شعيب بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر , ثم
أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم:

(أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين , وزنوا بالقسطاس المستقيم , ولا تبخسوا
الناس أشياءهم , ولا تعثوا في الأرض مفسدين).

وقد كان شأنهم - كما ذكر في سورتي الأعراف وهود - أن يطففوا في الميزان والمكيال
, وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائداً عن حقهم , ويعطوا أقل من حق الناس , ويشتروا
بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدو أنهم كانوا في ممر قوافل التجارة , فكانوا
يتحكمون فيها . وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله , لأن العقيدة
الصحيحة يتبعها حسن المعاملة . ولا تستطيع أن تغضي عن الحق والعدل في معاملات
الناس .

ثم استجاش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم , وهو يذكرهم بخالقهم الواحد . خالق
الآجال كلها والسابقين جميعاً:

(واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين).

فما كان منهم إلا أن يطلقوا عليه الاتهام بأنه مسحور , فهو يخلط وبهذي بما يقول:

(قالوا: إنما أنت من المسحرين).. .

وإلا أن يستنكروا رسالته . فهو بشر مثلهم , وما هكذا - في زعمهم - يكون الرسول .
ويرمونه بالكذب فيما يقول:

(وما أنت إلا بشر مثلنا . وإن نظنك لمن الكاذبين).

وإلا أن يتحدوه أن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقاً فيما يدعيه ; وأن
يسقط عليهم رجوماً من السماء , أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعاً:

(فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين).. .

وهو تحدي المستهتر الهازيء المستهين ! وهو شبيه بتحدي المشركين للرسول الكريم

..

(قال:ربي أعلم بما تعملون).. .

وبعجل السياق بالنهاية دون تفصيل ولا تطويل .

(فكذبوه . فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم).. .

قيل: أخذهم حر خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور . ثم تراءت لهم سحابة , فاستظلوا بها ; فوجدوا لها بردا , ثم إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تفزعهم وتدمرهم تدميرا .

وكان ذلك " يوم الظلة " فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم !

ثم يجيء التعقيب المكرور:

(إن في ذلك لآية , وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم).

وبختم القصص في السورة ليجيء على إثره التعقيب الأخير . .

الوحدة العاشرة: 192 - 227 الموضوع: نقض شبهات الكفار حول القرآن وإثبات مصدره الرباني

وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ (196) أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197)
مقدمة الوحدة

انتهى القصص وكله يعرض قصة الرسل والرسالات . وقصة التكذيب والإعراض . وقصة التحدي والعقاب .

وقد بدأ هذا القصص بعد مقدمة السورة . والحديث فيها خاص برسول الله [ص] ومشركي قريش: لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون . . ثم سيق القصص , وكله نماذج للقوم يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون !

فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذي تضمنته المقدمة ; فجاء هذا التعقيب الأخير , يتحدث عن القرآن , فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين - ومنه هذا القصص الذي مضت به القرون , فإذا القرآن ينزل به من رب العالمين - ويشير إلى أن علماء بني إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن , لأنه مذكور في كتب الأولين . إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ; ويزعمون أنه سحر أو شعر , ولو أن أعجميا لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين . لأن العناد هو الذي يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل ! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد [ص] كما تنزل بالأخبار على الكهان . وما هو كذلك بشعر , فإن له منهجا ثابتا والشعراء يهيمون في كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرا للمشركين , قبل أن يأخذهم الله بالعذاب , وقبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . .

الدرس الأول: 192 - 209 إثبات مصدر القرآن الرباني

(وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين). .

والروح الأمين جبريل - عليه السلام - نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله [ص] وهو أمين على ما نزل به , حفيظ عليه , نزل به على قلبه فتلقاه تلقيا مباشرا , ووعاه ووعيا مباشرا . نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين . هو لسان قومه الذي يدعوهم به , ويتلو عليهم القرآن . وهم يعرفون مدى ما يملك البشر أن يقولوا ; ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر , وإن كان بلغتهم ; وأنه بنظمه , وبمعانيه , وبمنهجه , وبتناسقه . يشي بأنه أت من مصدر غير بشري بيقين .

وينتقل من هذا الدليل الذاتي إلى دليل آخر خارجي:

(وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل). .

فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن , كما وردت أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين . ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة , ومنتظرون هذا الرسول , ويحسون أن زمانه قد أظلمهم ; ويحدث بعضهم بعضا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي , ولسان عبد الله بن سلام - رضي الله عنهما - والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين .

وَلَوْ بَرَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (203) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذَرُونَ (208) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209)

إنما يكابر المشركون ويعاندون لمجرد المكابرة والعناد , لا لضعف الحجة ولا لقصور الدليل ; فلو جاءهم به أعجمي لا ينطق العربية فتلاه عليهم قرآنا عربيا ما آمنوا به , ولا صدقوه , ولا اعترفوا أنه موحى به إليه , حتى مع هذا الدليل الذي يجبه المكابرين:

(ولو نزلناه على بعض الأعجمين , فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين). .

وفي هذا تسريه عن رسول الله [ص] وتصوير لعنادهم ومكابرتهم في كل دليل . ثم يعقب على هذا بأن التكذيب مكتوب على القوم ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم . فهكذا قضي الأمر أن يتلقوه بالتكذيب , كأنه طبع في قلوبهم لا يحول . حتى يأتيهم العذاب وهم في غفلة لا يشعرون:

(كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم , فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون). .

والتعبير يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب لهم . فيقول: إنه على هذه الهيئة . هيئة عدم الإيمان والتكذيب بالقرآن . على هذه الهيئة نظمناه في قلوبهم وأجريناه . فهو لا

يجري فيها إلا مكذبا به . ويظل على هيئته هذه في قلوبهم (حتى يروا العذاب الأليم) . .
(فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) . . وقد بقي بعضهم فعلا على هذا الوضع حتى فارق هذه
الأرض بالقتل أو الموت , ومن ثم إلى العذاب الأليم . . وفي هذه اللحظة فقط يفيقون:
(فيقولوا: هل نحن منظرون ?) . .

هل نحن مؤجلون إلى فرصة أخرى , نصلح بها ما فات . وهيهات هيهات !

ولقد كانوا يستعجلون عذاب الله , على سبيل الاستهزاء والاستهتار , واغترارا بما هم
فيه من متاع , يبلد حسهم , ويجعلهم يستبعدون النقلة منه إلى العذاب والنكال . شأنهم
شأن ذوي النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول ; وقلما يتصورون أن تحول . فهو يوقظهم
هنا من هذه الغفلة , ويرسم لهم صورتهم حين يحل بهم ما يستعجلون:

(أفبعذابنا يستعجلون ? أفرايت إن متعناهم سنين , ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى
عنهم ما كانوا يمتعون) . .

فيضع صورة الاستعجال بالعذاب في جانب . وفي الجانب الآخر تحقق الوعيد . وإذا
سنون المتاع ساقطة كأنها لم تكن , لا تغني عنهم شيئا , ولا تخفف من عذابهم .

وفي الحديث الصحيح: " يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة , ثم يقال له: هل رأيت
خيرا قط ? هل رأيت نعيما قط ? فيقول: لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان
في الدنيا , فيصغ في الجنة صبغة , ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط ? فيقول: لا والله يا
رب " . .

ثم يخوفهم بأن الإنذار مقدمة الهلاك . وأن رحمة الله ألا يهلك قرية حتى يبعث فيها
رسولا , يذكرها بدلائل الإيمان:

(وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين) . .

ولقد أخذ الله على البشر عهد الفطرة أن يوحدوه ويعبدوه . والفطرة بذاتها تحس
بوجود الخالق الواحد ما لم تفسد وتتحرف . وبث دلائل الإيمان في الكون , كلها يوحى
بوجود الخالق الواحد . فإذا نسي الناس عهد الفطرة ; وأغفلوا دلائل الإيمان , جاءهم
نذير يذكرهم ما نسوا , ويوقظهم إلى ما أغفلوا . فالرسالة ذكرى تذكر الناس وتوقظ
الغافلين . زيادة في العدل والرحمة (وما كنا ظالمين) في أخذ القرى بعد ذلك بالعذاب

وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ
لَمَعْرُوْلُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ
الْأَقْرَبِينَ (214)

والهلاك . وإنما هو جزاء النكسة عن خط الهدى ومنهج اليقين .

الدرس الثاني: 210 - 212 لا صلة بين الشياطين وبين القرآن

ثم يبدأ معهم جولة جديدة عن القرآن الكريم:

(وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) . .

لقد قرر في الجولة الماضية أنه تنزل رب العالمين نزل به الروح الأمين ; واستطرد مع تكذيبهم به , واستعجالهم ما يتوعدهم من عذاب فيه . . وها هو ذا ينبغي دعواهم أنه من وحي الشياطين على طريقة الكهان , الذين كانوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب , وبالسمع الذي يتكهنون فيه بالأخبار .

وما يليق هذا القرآن بالشياطين . وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان . والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر .

وما هم بمستطيعين أن يأتيوا به . فهم معزولون عن سماع الوحي به من الله . إنما ينتزل به الروح الأمين , بإذن من رب العالمين . وليس هذا بميسور للشياطين .

الدرس الثالث: 213 - 220 تكليف الرسول بالإنذار والعبادة والصبر

وهنا يلتفت بالخطاب إلى رسول الله [ص] يحذره من الشرك - وهو أبعد من يكون عنه - ليكون غيره أولى بالحدز . ويكلفه إنذار عشيرته الأقربين . وأمره بالتوكل على الله , الذي يلحظه دائما وبرعاه:

(فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل: إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم) . .

وحين يكون الرسول [ص] متوعدا بالعذاب مع المعذبين , لو دعا مع الله إلها آخر . وهذا محال ولكنه فرض للتقريب . فكيف يكون غيره ? وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين ?! وليس هنالك محاباة , والعذاب لا يتخلف حتى عن الرسول , لو ارتكب هذا الإثم العظيم !

وبعد إنذار شخصه [ص] يكلف إنذار أهله . لتكون لمن سواهم عبرة , أن هؤلاء يتهددهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون:(وأنذر عشيرتك الأقربين) . .

روى البخاري ومسلم أنه لما نزلت هذه الآية أتى النبي [ص] الصفا فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه ! فاجتمع الناس إليه , بين رجل يجيء إليه , وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله [ص]: " يا بني عبد المطلب . يا بني فهر . يا بني لؤي . أرايتم لو أخبرتمكم أن خيلا بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ? " قالوا: نعم . قال: " فأني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " . فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا ? وأنزل الله:(تبت يدا أبي لهب وتب . . .)

وأخرج مسلم - بإسناده - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما نزلت:(وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله [ص] فقال: " يا فاطمة ابنة محمد . يا صفية ابنة عبد المطلب . يا بني عبد المطلب . لا أملك لكم من الله شيئا . سلوني من مالي ما شئتم " .

وأخرج مسلم والترمذي - بإسناده عن أبي هريرة - قال: لما نزلت هذه الآية . دعا رسول الله [ص] قريشا فعم وخص فقال: " يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم

وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَتَزَلَّى الشَّيَاطِينُ (221) تَتَزَلَّى عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) من النار . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار . فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً . إلا أن لكم رحماً سألها ببلالها " . . .

فهذه الأحاديث وغيرها تبين كيف تلقى رسول الله [ص] الأمر , وكيف أبلغه لعشيرته الأقربين , ونفض يده من أمرهم , ووكلمهم إلى ربهم في أمر الآخرة , وبين لهم أن قرباتهم له لا تنفعهم شيئاً إذا لم ينفعهم عملهم , وأنه لا يملك لهم من الله شيئاً , وهو رسول الله . . وهذا هو الإسلام في نصابه ووضوحه , ونفي الوساطة بين الله وعباده حتى عن رسوله الكريم .

كذلك بين الله لرسوله كيف يعامل المؤمنين الذين يستجيبون لدعوة الله على يديه:
(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) . .

فهو اللين والتواضع والرفق في صورة حسية مجسمة . صورة خفض الجناح , كما يخفض الطائر جناحيه حين يهبط . وكذلك كان رسول الله [ص] مع المؤمنين طوال حياته فقد كان خلقه القرآن . وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم .

وكذلك بين الله له كيف يعامل العصاة فيكلهم إلى ربهم , ويبرأ مما يعملون:
(فإن عصوك فقل:إني بريء مما تعملون) . .

وكان هذا في مكة , قبل أن يؤمر الرسول [ص] بقتال المشركين .
ثم يتوجه به [ص] إلى ربه , يصله به صلة الرعاية الدائمة القريبة:

(وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم) .

دعهم وعصيانهم , متبرئاً من أعمالهم , وتوجه إلى ربك معتمداً عليه , مستعينا في أمرك كله به . ويصفه - سبحانه - بالصفتين المكررتين في هذه السورة: العزة والرحمة . ثم يشعر قلب الرسول [ص] بالأنس والقربى . فربه يراه في قيامه وحده للصلاة , ويراه في صفوف الجماعة الساجدة . يراه في وحدته ويراه في جماعة المصلين يتعهدهم وينظمهم ويؤمهم ويتنقل بينهم . يرى حركاته وسكناته , ويسمع خطراته ودعواته: (إنه هو السميع العليم) . .

وفي التعبير على هذا النحو إيناس بالرعاية والقرب والملاحظة والعناية . وهكذا كان رسول الله [ص] يشعر أنه في كنف ربه , وفي جواره وقربه . وفي جو هذا الأنس العلوي كان يعيش . .

الدرس الرابع: 220 - 227 الصلة بين الشياطين والشعراء الغاوين

والجولة الأخيرة في السورة حول القرآن أيضا . ففي المرة الأولى أكد أنه تنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين . وفي المرة الثانية نفى أن تنزل به الشياطين . أما في هذه المرة فيقرر أن الشياطين لا تنزل على مثل محمد [ص] في أمانته وصدقه وصلاح منهجه ; إنما تنزل على كل كذاب آثم ضال من الكهان الذي يتلقون إحياءات الشياطين ويزيعونها مع التضخيم والتهويل :

(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ? تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون). .

وكان في العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل إليهم الأخبار , وكان الناس يلجأون إليهم ويركنون إلى نبوءاتهم .

وأكثرهم كاذبون . والتصديق بهم جري وراء الأوهام والأكاذيب . وهم على أية حال لا يدعون إلى هدى ,

وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226)

ولا يأمرون بتقوي , ولا يقودون إلى إيمان . وما هكذا كان رسول الله [ص] وهو يدعو الناس بهذا القرآن إلى منهج قويم .

ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحيانا: إنه شعر , ويقولون عن النبي [ص] إنه شاعر . وهم في حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذي لا يعرفون له نظيرا , والذي يدخل إلى قلوب الناس , ويهز مشاعرهم , ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له ردا .

فجاء القرآن يبين لهم في هذه السورة أن منهج محمد [ص] ومنهج القرآن غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلا . فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح , ويدعو إلى غاية محددة , ويسير في طريق مستقيم إلى هذه الغاية . والرسول [ص] لا يقول اليوم قولا ينقضه غدا , ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة ; إنما يصر على دعوة , ويثبت على عقيدة , ويدأب على منهج لا عوج فيه . والشعراء ليسوا كذلك . الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة . تتحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت . ويرون الأمر الواحد في لحظة أسود . وفي لحظة أبيض . يرضون فيقولون قولا , ويسخطون فيقولون قولا آخر . ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال !

هذا إلى أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها , ويتخيلون أفعالا ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها . فيقل اهتمامهم بواقع الأشياء , لأنهم يخلقون هم في خيالهم واقعا آخر يعيشون عليه !

وليس كذلك صاحب الدعوة المحددة , الذي يريد تحقيقها في عالم الواقع ودنيا الناس . فلصاحب الدعوة هدف , وله منهج , وله طريق . وهو يمضي في طريقه على منهجه إلى هدفه مفتوح العين , مفتوح القلب , يقظ العقل ; لا يرضى بالوهم , ولا يعيش بالرؤى , ولا يقنع بالأحلام , حتى تصبح واقعا في عالم الناس .

فمنهج الرسول [ص] ومنهج الشعراء مختلفان , ولا شبهة هناك , فالأمر واضح صريح :

(والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون
!?)

فهم يتبعون المزاج والهوى ومن ثم يتبعهم الغاؤون الهائمون مع الهوى , الذين لا منهج
لهم ولا هدف .

وهم يهيمون في كل واد من وديان الشعور والتصور والقول , وفق الانفعال الذي يسيطر
عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات .

وهم يقولون ما لا يفعلون . لأنهم يعيشون في عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ,
يؤثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم ! ومن ثم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها ,
لأنهم عاشوها في تلك العوالم الموهومة , وليس لها واقع ولا حقيقة في دنيا الناس
المنظورة !

إن طبيعة الإسلام - وهو منهج حياة كامل معد للتنفيذ في واقع الحياة , وهو حركة ضخمة
في الضمائر المكنونة وفي أوضاع الحياة الظاهرة - إن طبيعة الإسلام هذه لا تلائمها
طبيعة الشعراء كما عرفتهم البشرية - في الغالب - لأن الشاعر يخلق حلما في حسه
ويقنع به . فاما الإسلام فيريد تحقيق الحلم ويعمل على تحقيقه , ويحول المشاعر كلها
لتحقق في عالم الواقع ذلك النموذج الرفيع .

والإسلام يحب للناس أن يواجهوا حقائق الواقع ولا يهربوا منها إلى الخيال المهوم . فإذا
كانت هذه الحقائق لا تعجبهم , ولا تتفق مع منهجه الذي يأخذهم به , دفعهم إلى تغييرها ,
وتحقيق المنهج الذي يريد .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

ومن ثم لا تبقى في الطاقة البشرية بقية للأحلام المهومة الطائرة . فالإسلام يستغرق
هذه الطاقة في تحقيق الأحلام الرفيعة , وفق منهجه الضخم العظيم .

ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته - كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ . إنما
يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن . منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها
; ومنهج الأحلام المهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها . فاما حين تستقر الروح على
منهج الإسلام , وتنضج بتأثيراتها الإسلامية شعرا وفنا ; وتعمل في الوقت ذاته على
تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع ; ولا تكتفي بخلق عوالم وهمية تعيش فيها ,
وتدع واقع الحياة كما هو مشوها متخلفا قبيحا !

وأما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية , وحين تنظر إلى الدنيا فتراها
من زاوية الإسلام , في ضوء الإسلام , ثم تعبر عن هذا كله شعرا وفنا .

فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن , كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ .

ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون , وإلى خفايا النفس البشرية . وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن . وفي القرآن وقفات أمام بدائع الخلق والنفس لم يبلغ إليها شعر قط في الشفافية والنفاد والاحتفال بتلك البدائع وذلك الجمال .

ومن ثم يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العام للشعراء:

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات , وذكروا الله كثيرا , وانتصروا من بعد ما ظلموا) .

فهؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام . هؤلاء آمنوا فامتلت قلوبهم بعقيدة , واستقامت حياتهم على منهج . وعملوا الصالحات فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل , ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام . وانتصروا من بعد ما ظلموا فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نصره الحق الذي اعتنقوه .

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها في إبان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول الله [ص] حسان بن ثابت , وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنهم - من شعراء الأنصار , ومنهم عبد الله بن الزبير , وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد كانا يهجون رسول الله [ص] في جاهليتهما , فلما أسلما حسن إسلامهما ومدحا رسول الله ونافحا عن الإسلام .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله [ص] قال لحسان: " اهجمهم - أو قال هاجهم - وجبريل معك " . . . وعن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه أنه قال للنبي [ص] إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل . فقال رسول الله [ص]: " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل " [رواه الإمام أحمد]

والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفن الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها . وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها , ليكون شعرا أو فنا يرضاه الإسلام .

وليس من الضروري أن يكون دفاعا ولا دفاعا ; ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ولا تمجيذا له أو لأيام الإسلام ورجاله . . ليس من الضروري أن يكون في هذه الموضوعات ليكون شعرا إسلاميا . وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح , ممزوجة بشعور المسلم الذي يربط هذه المشاهد بالله في حسه لهي الشعر الإسلامي صميمه . وإن لحظة إشراق واتصال بالله , أو بهذا الوجود الذي أبدعه الله , لكفيلة أن تنشئ شعرا يرضاه الإسلام .

ومفروق الطريق أن للإسلام تصورا خاصا للحياة كلها , وللعلاقات والروابط فيها . فأیما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام .

وتختم السورة بهذا التهديد الخفي المجمل:

(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . .

السورة التي اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم , واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب . كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسائل والقرون .

تنتهي بهذا التهديد المخيف . الذي يلخص موضوع السورة . وكأنه الإيقاع الأخير
المرهوب ; يتمثل في صور شتى , يتمثلها الخيال ويتوقعها . وتزلزل كيان الظالمين
زلزالا شديدا .